

ابن النفيس : فيلسوف مسلم

أ.د. د. حامد طاهر.

١- يعد ابن النفيس (ت٦٨٧هـ) واحداً من أعلام الحضارة الإسلامية ، تميز في مجالي الطب والفلسفة، شأنه شأن ابن سينا (ت٤٢٨هـ)، وابن طفيل (ت٥٨١هـ) ، وابن رشد (ت٥٩٥هـ) ، وغيرهم من هؤلاء الأعلام الذين جمعوا بين تخصصات متنوعة ، واستطاعوا أن يثبتوا في كل منها تميزاً واضحاً .

٢- والغرض من هذا البحث هو محاولة إثبات أن ابن النفيس - من خلال رسالته المعروفة بالكامل - يعتبر فيلسوفاً إسلامياً بمعنى الكلمة ، وهو الأمر الذي يترتب عليه أن نفسح له مكاناً لائقاً به في تاريخ الفلسفة الإسلامية ، دون أن نترك شهرته كطبيب كبير تغطي على هذا الجانب . وبهذا يتبوأ مكانته الفلسفية التي لا تقل - بحال ما - عن مناظر له تماماً حقق شهرة واسعة في مجال الفلسفة الإسلامية هو ابن طفيل .

* أستاذ الفلسفة الإسلامية وعميد كلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

٣- والمنهج الذى يتلاءم لتحقيق هذا الغرض يتكون من عدة خطوات،
أولها القراءة الفاحصة للأثر الفلسفى الوحيد تقريباً ، الذى تركه ابن النفيس ،
بعنوان (الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية) ، ثم استخلاص أهم الأفكار
الفلسفية التى توصل إليها ابن النفيس ، أو اختارها من آراء العلماء السابقين،
وأخيراً وضع هذه الأفكار فى إطار البناء العام للفلسفة الإسلامية .

٤- وفى البداية لابد من التعريف المختصر بالرسالة الكاملية لابن
النفيس . وهى عبارة عن حكاية متخيلة ، يروى فيها ابن النفيس على لسان
الراوى (فاضل بن ناطق) ماحدث لرجل اسمه (كامل) منذ نشأته حتى
توصله إلى أسمى الأفكار العقلية، والتى تفسر ما جاء فى الشريعة أو تتفق
معها .

٥- وتنقسم الرسالة - أو الحكاية - إلى أربعة فنون : أولها : كيفية
تكون هذا الإنسان المسمى بكامل ، وكيفية وصوله إلى تعرف العلوم
والنبوات ، وثانيها : كيفية وصوله إلى تعرف السيرة النبوية ، وثالثها :
كيفية وصوله إلى تعرف السنن الشرعية ، ورابعها : كيفية وصوله إلى
معرفة الحوادث التى تكون بعد وفاة خاتم النبيين ﷺ .

٦- ثم تتفرع هذه الفنون الأربعة إلى تسعة وعشرين فصلاً ، يضم
الفن الأول (٣ فصول) والثانى (١٠ فصول) والثالث (٦ فصول) والرابع
(١٠ فصول) . وقد أتاحت هذه التفريعات للمؤلف تناول موضوعات عديدة
ومتنوعة ، على الرغم من المساحة المحدودة للرسالة (٧٢ صفحة) فى
تحقيق أ . عبد المنعم محمد عمر ، التى نشرها مجمع البحوث الإسلامية

بالأزهر ، بمناسبة انعقاد مؤتمره العاشر بالقاهرة ، صفر ١٤٠٦ - نوفمبر

١٩٨٥ .

٧- والواقع أن الفن الأول يحتوى على فكرة التوالد العذرى التى تعنى نشأة إنسان بدون الطريق الطبيعى المتعارف عليه ، أى من أب وأم ، وإنما نتيجة تخثر كمية من الماء ، فى طقس مناسب ، داخل مغارة ، أصبحت بالنسبة إليه مثل قشرة البيض بالبنسبة للفرخ . ومن الطبيعى أن يكون هذا الإنسان "عظيم البدن جدا" بخلاف الإنسان الذى يتكون فى رحم المرأة ، كما أنه قد وجد أثناء نموه الغذاء المناسب ، والهواء اللازم ، حتى إذا خرج كان مكتمل النمو ، مثل صبى كبير ، وليس مثل رضيع (١) .

٨- ومن الجدير بالذكر ألا نعبر على هذه الفكرة - التى اتهم ابن النفيس من أجلها أحيانا بأنه من الفلاسفة الطبيعية أو الماديين - دون أن نشير إلى قوله : "إن الله تعالى لكرمه لا يمنع مستحقا مستحقه ، ويعطى كل مستعد ما يستعد له . فذلك خلق من تلك الأجزاء (بعض أجزاء الطين المتنوع الطباع) أعضاء إنسان ، ومن جملتها بدن إنسان" (٢) وهذا يعنى - بكل وضوح - أن ابن النفيس لا يقول بفكرة التوالد العذرى إلا فى إطار القدرة الإلهية .

٩- وبعد ظهور الإنسان فى جزيرة منعزلة ، تبدأ عمليات المعرفة الحسية عن طريق الحواس الخمسة ، والمعرفة التجريبية عن طريق

(١) الرسالة الكاملة ص ١٠٤ .

(٢) السابق ، نفس الصفحة .

الملاحظة المباشرة والمقارنة بالمتماثلات ، والتجربة على الحيوانات (وهنا يوحى ابن النفيس بأهمية التشريح الذى كان الأطباء المسلمون محرومين من ممارسته ، وتظهر فكرته المبتكرة عن الدورة الدموية الصغرى) ثم ترتفع قليلاً إلى أحوال الأجسام العلوية كالمطر والبرد والتلج والرعد والبرق ونحوها ، وتعلو بعد ذلك إلى الأجسام السماوية ونظام ارتباطها بعضها ببعض وحركتها ودورانها ٠٠ (١)

١٠- وهنا يصل (كامل) إلى معرفة الله ، التى تعتبر ضرورة لازمة عن أنواع المعارف الحسية ، والتجريبية ، والعقلية السابقة عليها : وإذا كانت معرفة الله تبدأ بالإقرار بوجوده ، فإن الوجود الإلهى يتطلب إضافة كل الكمالات اللائقة به ، ومنها استحقاقه أن يعتبر وحده (الوحدانية) (٢) ٠

١١- لكن هل يمكن للإنسان أن يتوصل إلى أشكال العبادة بنفسه ؟ لا يبدو أن ابن النفيس يعتقد ذلك ، لأننا نراه يسرع بنجدة بطل حكايته عن طريق سفينة ألقته الرياح على الجزيرة " فيها خلق كثير من التجار وغيرهم" (٣) وهؤلاء هم الذين أخذوا بيد "كامل" وأخرجوه من حياة العزلة والتوحش، إلى الحياة المدنية ، التى تبدأ بمعرفة اللغة ، والتعاون الاجتماعى الذى تتحقق به المنافع ، ويتطلب شرعاً محفوظاً تتقطع به المنازعة ، ويتقبله الجميع بالطاعة ٠

(١) السابق ، ١٠٧-١١٠ ٠

(٢) السابق ، ص ١١٠ ٠

(٣) السابق ، ١١١ ٠

- ١٢- ومثل هذا الشرع لأبد أن يبلغه انسان ، يجرى على يديه أمر معجز حتى يصدق الناس • وذلك هو النبي الذى :
- (أ) يبلغ الناس شرع الله •
- (ب) يعرفهم بجلال الله ، وبسائر صفاته •
- (ج) يعرفهم حال المعاد ، وجزاءهم من السعادة والشقاء (١) •

١٣- ومن المهم جداً أن يجرى إبلاغ الناس بهذه الحقائق على نحو متدرج ، عن طريق الأنبياء المتتابعين "وكلما جاء نبي آخر زاد على المتقدم • حتى يستوفى ما يحتاج إليه من الشرع • وحينئذ يكون الناس قد عرفوا الله بوجه ما ، واشتاقوا إلى تعرف صفاته وخصائصه ، فيسهل عليهم قبول ما يرد به الأنبياء المتأخرون من ذلك • ثم إذا عرف الناس صفات الله تعالى وجلاله وتحققوا قدرته التامة لم يعسر عليهم التصديق بأحوال المعاد ، وما يشتمل عليه من السعادة والشقاوة الأبديين" (٢) •

١٤- ومن هذا النص الهام ، يمكن القول بأن ابن النفيس يسلك طريقاً مختلفاً تماماً عن طريق ابن طفيل فى رسالته (حى بن يقظان) الذى يذهب فيها إلى أن العقل الإنسانى يستطيع - بمفرده - أن يتوصل إلى حقائق الشرع ، حتى لو لم يصل إليه هذا الشرع • أما طريق ابن النفيس فيتمثل فى أن العقل الإنسانى بحاجة ماسة إلى الشرع ، الذى يقوم الأنبياء المتعاقبون بتبليغ حقائقه بالتدريج ، حتى تكون مقبولة من العقل ، وسهلة

(١) السابق ، ص ١١٣ •

(٢) السابق ، ص ١١٤ •

عليه • وهذا هو ما يطلق عليه ابن النفيس عبارة "تدريج الناس إلى سهولة قبول الحق" (١) •

١٥- النبوة إذن ضرورية • وسبب الحاجة إليها أن الناس "يعسر عليهم التسليم بوجود ما هو ليس بجسم ، ولا قوة فى جسم ، ولا هو فى جهة ، ولا إليه إشارة •• وكثير منهم يعسر عليه تسليم أمر المعاد ، وتسليم العودة بعد الموت ، وتسليم البقاء الأبدى فى النعيم أو فى الجحيم" ويرى ابن النفيس أن الناس فى عهده" لو لم يتعودوا على ما جاءت به الشريعة وألفوا أقوالها لبادروا بالاستتكار ، والرد على الأنبياء" (٢) •

١٦- ومما ينتج عن التعاقب بين الأنبياء ، والتدرج فى تبليغ حقائق الشرع أن تكون الرسالة الخاتمة هى أكمل الرسالات وأفضلها ، وبالتالي يكون صاحبها هو أفضل الأنبياء ، "لأن النبوة بعده تنقطع ، فلا بد أن يأتى بجميع ما يحتاج إليه فى تكميل فائدة النبوة • فلذلك يجب أن يكون النبى الذى هو خاتم النبيين أفضل الأنبياء جميعاً" (٣) •

١٧- وانطلاقاً من ذلك ، التزم ابن النفيس باستعراض عدد من معالم سيرة الرسول ﷺ (فى عشرة فصول: نسبه ، موطنه ، تربيته ، شهواته ، هيئته ، مرضه وعمره ، أولاده ، دعوته للناس ، اسمه ، كنيته) محاولاً الدفاع عما يمكن أن يثار حولها من شبهات ، أو تبرير ما وقع بها من

(١) السابق ، ص ١١٥ •

(٢) السابق ، ص ١١٣ •

(٣) السابق ، ص ١١٥ •

أحداث تبريراً عقلياً ، يبدو لنا من خلاله فكرة رئيسية ، تتمثل فى تقديم حقائق الشرع فى إطار عقلى خالص .

١٨- ومن الجدير بالذكر ، أن تحليل أحداث التاريخ ليس بالأمر السهل لأنه يتطلب وعياً عميقاً بها من ناحية ، ثم البحث عن إطار عقلى واحد يتنظمها من ناحية أخرى . ويلاحظ أن ابن النفيس لا يقيم هذا الإطار العقلى إلا على أساس الحقائق الشرعية ذاتها . وهى محاولة فريدة فى المزج بين أحداث التاريخ وبين ما يمكن أن نطلق عليه "التبرير العقلى" لأحداث السيرة النبوية ولكثير من الأحكام والمبادئ التى وردت فى الشريعة . وهذا المسلك يختلف بالطبع عن مسلك كل من ابن سينا والسهروردى وابن طفيل فى قصصهم ، التى اتجهوا فيها اتجاهات مختلفة تماماً .

١٩- ابن النفيس قريب دائماً من الحدث التاريخى ، يتأمله ويحاول استخراج العبرة منه ، وهذه العبرة ليست إلا الحكمة الإلهية التى تنتظم جميع الحوادث والأحداث التى تقع فى الكون ، والتى قد لا يدركها العقل الإنسانى أحياناً ، لكن عدم إدراكه لها لا يعنى عدم وجودها . إنها دائماً موجودة . والحكماء وحدهم هم الذين يتيسر لهم اكتشافها ، والكشف عنها . وهو عمل مطلوب باستمرار . يقول ابن رشد "إن الموجودات إنما تدل على الصانع بمعرفة صنعتها ، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم . . كانت المعرفة بالصانع أتم" (١) .

(١) فصل المقال ، ص ٢٢ .

٢٠- ومن أجل التعرف على منهج ابن النفيس فى التعليل والتبرير العقليين ، سوف نتوقف عند نص له ، يتعلق بنسب الرسول ﷺ ، وهو موضوع تاريخى محض ، ولكنه يقول فيه : " ولما تبين للرجل المسمى بكامل أن هذا النبى ﷺ يجب أن يكون أفضل النبيين وأعلمهم ، تفكر بعد ذلك فقال فى نفسه : إن هذا يجب أن يكون عند الناس بهذه المنزلة ، لأنه لو لم يكن كذلك لم يكن فى نفوس الناس من استعظامه مايسهل عليهم الإذعان لقبول ماخبر به ، لأن هذا يشتمل إخباره عن أشياء كثيرة مما لايقبلها أوهام الناس لأنه يخبر بتفاصيل الشريعة ، وبجميع صفات الله تعالى ، وبتفاصيل أحوال المعاد . فلو لم يكن عند الناس بالمنزلة العظيمة جداً لم ينقادوا لقوله . ولا كذلك باقى الأنبياء عليهم السلام . وإنما يكون هذا النبى عند الناس كذلك إذا كان نسبه شريفاً جداً . وأشرف النسب ما كان إلى أولى الدين . وأشرف ذلك ماكان إلى النبيين . وأشرف ذلك ما كان إلى العظماء من الأنبياء . وأفضل ذلك ما كان إلى نبى اتفقت الملل على تعظيمه ، لأنه لو كانت ملة تعاديه لكانت تلك الملة تنفر عن المنسوب إليه ، فكانت تحمل الناس على الامتناع من قبول أخباره . والنبى الذى هو كذلك هو ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنه مع جلالته فى نفسه قد اتفقت الملل على تعظيمه ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين منسوباً إلى ابراهيم ، صلوات الله على الجميع"(١) .

٢١- إن ابن النفيس يريد أن يصل بالتعليل المنطقى إلى شرف نسب الرسول ﷺ وانتسابه إلى ابراهيم ، عليه السلام . وهو فى سبيل ذلك

(١) الرسالة الكاميلية ، ١١٨ ، ١١٩ .

لايخترع أحداثاً ، وإنما يلجأ إلى وقائع التاريخ ذاتها ، وتسلسل نسب الرسول ﷺ إلى نبي الله ابراهيم عن طريق الاعتماد على أن تصديق الناس لما يجيء به الرسول من أمور عظيمة- يتوقف على علو منزلته . وعلو المنزلة يرتبط بشرف النسب ، وأشرف النسب ما كان راجعا إلى الأنبياء . وأفضل درجاته ماكان إلى أعظم الأنبياء وأكثرهم مكانة فى جميع الملل ، وهو ابراهيم عليه السلام . . وهكذا فإن النتيجة العقلية تثبت أن انتساب ، الرسول ﷺ إلى ابراهيم كان أحد عوامل نجاح دعوته ، وتقبلها من الناس قبولاََ حسناً . وهذه النتيجة هى - فى نفس الوقت - ماتؤكدده الحقيقة التاريخية التى ترجع نسب الرسول ﷺ إلى ابراهيم ، عليه السلام .

٢٢- وبناء على ذلك ، يمكن القول بعدم وجود قفزات من الخيال فى منهج ابن النفيس ، بقدر مايتوافر له من عنصر البراعة العقلية فى تحليل الأحداث التاريخية ، حتى تظهر فى نسق منطقى متماسك ، تسلم فيه المقدمات إلى نتائجها . وكأنه بذلك يتجه إلى جمهور متشكك أو متردد أو حتى معاد . ومن الواضح أن هذا المنهج العقلى الخالص يتميز تماماً عن المنهج العقلى - الذوقى ، الذى استخدمه ابن طفيل فى رسالة حى بن يقظان، وكذلك المنهج الرمزى الخالص الذى استخدمه السهروردى فى رسالته "الغريبة الغربية" .

٢٣- ونحن إذ نؤكد على هذه النقطة المتعلقة بمنهج ابن النفيس ، فإنما نهدف إلى عدم الوقوع فيما استهوى الكثير من الباحثين حول المقارنة أو الموازنة بين تلك القصص المتشابهة من حيث الظاهر ، ولكن كلا منها يتميز بطابعه الخاص . كما نهدف أيضا إلى ضرورة أن نتناول كل عمل

منها فى إطاره الخاص به ، ومن خلال مضمونه ومحتواه ، حتى لانظلمه بالمقارنة الظاهرية التى قلما تؤدى إلى نتائج حقيقية •

٢٤- ومادنا قد تعرفنا على منهج ابن النفيس ، وتميزه بالطابع العقلى، أصبح من السهل أن نحدد خصائص فكره الفلسفى الذى يغلب عليه طابع الوضوح ويميل إلى تبسيط الحقائق حتى تكون فى متناول كل إنسان ، مع الحرص على دحض مايمكن أن يوجه إلى الإسلام أو إلى رسوله ﷺ من افتراءات • وهى مهمة جلية مازالت مطلوبة فى كل العصور ، وتقع مسئوليتها - بالدرجة الأولى - على المشتغلين بالفلسفة الإسلامية •

٢٥- ومن أبرز الأمثلة على ذلك مايثار- من وقت لآخر - حول تعدد أزواج الرسول ﷺ بسبب الشهوة • وفى هذا الصدد ، يذهب ابن النفيس إلى أن الرسول ﷺ ينبغى أن يكون معتدل المزاج ، وبالتالي ينبغى أن تكون جميع أحواله باعتماد ، وكذلك شهواته • • فلذلك ينبغى أن تكون شهواته بجملتها متوسطة ، لكن بعضها الأليق بهذا النبى أن تكون خامدة والى ضعف • • كشهوة الأكل • وذلك لأن قلة الأكل من سنة الأولياء • • وكثرته من سنة أولى الشره • وبعضها الأليق به أن يكون قويا • • كشهوة الطيب ، وشهوة العبادات ، وشهوة الباه • أما شهوة الطيب فلأن زيادة الطيب مما ينتفع به الجلساء والمخالطون ويستعظم صاحبه • كما يكره الذى رائحته كريهة ويستقل • • وأما شهوة الباه فلأن زيادة هذه الشهوة فى الرجال محمودة لأنها تدل على قوة الرجولية • • وأما شهوة العبادات فلأن هذه النبى ﷺ لابد وأن يكون اتصاله بالله شديدا ، فإذا كان فى العبادة كان استغراقه فيها شديدا واتصاله بالله تعالى حينئذ تاما • • وذلك موجب لزيادة اللذة ،

بخلاف غير هذا النبي ﷺ . وأولى العبادات بذلك الصلاة ، لأن التوجه إلى الله تعالى أشد . وإذا كانت شهوة هذا النبي ﷺ للباه قوية - وهو منزّه عن أن تكون شهوته هذه لغير النساء، فإن ذلك من سيرة المفسدين والرعاع- فلا بد وأن تكون شهوته هذه إنما هي للنساء، فلذلك يجب أن يكون عنده نساء كالزوجات ، وأن تكون مباشرته لهن كثيرة" (١) .

٢٦- وهكذا يواجه ابن النفيس دعوى وصم الرسول ﷺ بالشهوانية، ويرد عليها مستعينا بالحديث النبوي الذي يقول : "حبب إلى من دنياكم ثلاث: الطيب ، والنساء ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة"، مقررّاً أن حبه ﷺ للنساء إنما يصدر عن فضيلة يتميز بها الرجل الكامل، كما أنه يتم في إطار شرعي خالص ، وهو الزواج، والزواج من النساء . ومن الواضح أن مواجهة الدعوى بهذا النص الديني ، مضافاً إليه التفسير العقلي أفضل كثيراً من محاولات التهرب منها عن طريق تقديم تبريرات اجتماعية أو إنسانية لظروف زواج الرسول ﷺ من كل واحدة من زوجاته ، وأحياناً ما تصطدم تلك التبريرات بالواقع التاريخي ، أو النصوص الصريحة من أمثال الحديث النبوي المذكور .

٢٧- وفي مجال إرسال محمد ﷺ بكتاب إلى الناس - وهو أمر واقع بالفعل- يتدرج ابن النفيس في البرهنة على ضرورة ذلك بالخطوات التالية: النبي المصحوب بكتاب أفضل من غير المصحوب به . محمد ﷺ خاتم

(١) السابق ، ص ١٢٥ .

النبیین والحاجة إلى حفظ شریعته أكبر ، لأن النبوة بعده منقطعة • ینبغی أن تتوافر الدواعی علی حفظ الكتاب الموصی به إلیه • وبسبب ذلك لابد أن یكون تألیفه لذیذا (علی حد قوله) • لا یتم ذلك إلا إذا كان فی أعلى درجات الفصاحة • لهذا جاء القرآن الکریم فی أعلى درجات الفصاحة (١) •

٢٨- أما بالنسبة إلى موقف ابن النفیس من علم الکلام - وهو من أهم مجالات الفلسفة الإسلامية - فإنه یرى أن ما یتعلق منه بالإلهیات ، والسمعیات (المعاد) ینبغی أن یؤخر إلى مرحلة ملائمة للمسلم ، بل إنه یحددها بأخر مرحلة الشباب (٢) • وتتكون عناصر المعرفة الکلامیة من معرفة أن للعالم صانعا ، لانهاية لبهائه وجلاله ، وأنه لا إله غیره ، وليس کمثله شیء ، وهو السميع العليم ، ونحو ذلك من الصفات •• التی تؤدي فی النهاية إلى توجه الإنسان إلى طاعة الله وعبادته • فهی إذن معرفة ذات هدف عملی ، یتحول بها فکر الإنسان إلى واقع حی ، ولا یقتصر علی مناقشات کلامیة وجدلیة عديمة النفع •

٢٩- یکفی أن یعلم الإنسان ما یلیق بجلال الله تعالى من القدرة التامة والقوة الكاملة ، دون التعرض لمشکلات عویصة ، وأحیانا غیر حقیقیة من أمثال : هل الله موجود فی العالم أم خارجه ؟ وأنه لیس بجسم ولا بمحسوس ، ولا هو فی وجهة ولا إلیه إشارة حسیة "فإن هذه الأشياء لو صرح بها النبی ﷺ فلا یخلو الحال من أحد أمرین :

(١) السابق ، ص ١٣٢ •

(٢) السابق ، ص ١٣٤ •

(أ) ألا يشتغل الناس بفهمها ، وتكون عندهم كالأشياء التى لامعنى

لها •

(ب) أو يشتغلوا بفهمها فيتشوشوا ويتحيروا ، ويهملوا معاشهم

وتدبير أحوالهم ، وينتهى بهم الحال إلى اختلال نظام شملهم •

وهذا منافع للمقصود الأساسى من النبوة (١) •

٣٠- أما بالنسبة إلى المعاد ، وهو ركن أساسى فى عقيدة المسلم ، فيرى ابن النفيس أن معرفته تكون تالية لمعرفة الله تعالى وصفاته • وأنه من الأمور الضرورية التى ينبغى أن ترد فى رسالة خاتم النبيين بحيث يكون بيانها كاملاً وشافياً • وهنا يتوقف ابن النفيس ليناقد قضية المعاد الروحانى والجسمانى التى انقسمت فيها آراء فلاسفة المسلمين • وهو يرى أن النبى لا يجوز أن يجعل المعاد روحانياً فقط ، لأن أكثر الناس تقصر عن أدراك اللذات والآلام الروحانية • "فإنه لو قيل للعالمى إنك إذا فعلت العادات على ماينبغى ، وأعرضت عن اللذات المحرمة ، وكانت معاملتك للناس على العدل ، فإن الله ينقلك إلى عالم لاتأكل فيه وتشرب ، ولاتتكح ، ولاتلبس ولاتنام ، بل تكون دائماً فى تسبيح وتقديس، ومع ذلك فلا توجر على ذلك ولاتنقل إلى حالة أخرى - لكان ذلك العالمى يرى أن فقدان هذه السعادة أولى • ومن ناحية أخرى ، لايجوز أن يجعل النبى المعاد بدنياً فقط ، لأن البدن بدون النفس معلوم عند الناس أنه إنما يكون كالخشبة ، لاشعور له بشىء • وإذا كان كذلك لم تكن له لذة ولا ألم فلا تكون له سعادة ولاشقاوة ،

(١) السابق ، ص ١٣٤ •

فلا يكون للمعاد جدوى • فلذلك لابد وأن يجعل هذا النبي ﷺ المعاد مركباً من البدن والنفس معاً (١) •

٣١- ومن الواضح أن تلك النتيجة التي توصل إليها ابن النفس هي نفس النتيجة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، وتؤكدُها النصوص الكثيرة الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية • وهذا هو ما جعلنا نقرر باطمئنان أن ابن النفيس فيلسوف مسلم ، بل إنه يعبر على نحو أكثر وضوحاً من غيره عن روح الشرع ، مطوعاً كل ماتحت يديه من البراهين والحجج العقلية لتأكيد الحقيقة الشرعية ، دون أن يبدو في حديثه أى تعارض أو تناقض • وإذا كان ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) قد اشتهر بأنه صاحب أهم محاولة للتوفيق بين الحكمة والشريعة ، أو بين الفلسفة والدين ، فإن ابن النفيس يتميز عنه بتقريب هذا المفهوم من الأذهان ، والابتعاد تماماً عن دائرة الجدل مع علماء الكلام ، الذين خصص لهم ابن رشد كتاباً كاملاً سماه "مناهج الأدلة في عقائد الملة" ليدحض آراءهم ، ويكشف عن فساد أدلتهم ، وضعف الأسس التي قامت عليها براهينهم •

٣٢- ويكفى أن نتأمل هنا كيف عرض ابن النفيس لحقيقة المعاد ، بصورة لانكاد نجد لها مثيلاً في الوضوح لدى أحد من فلاسفة المسلمين • فهو يقول : ان الإنسان مركب من بدن ونفس • والبدن هو هذا الشيء المحسوس ، وأما النفس فهي التي يشير الإنسان إليها بقوله "أنا" ، وهذا المشار إليه لايجوز أن يكون هو البدن أو أجزائه • ومن الواضح أن البدن

(١) السابق ، ص ١٣٦ •

يتغير من الطفولة إلى الشيخوخة • وكذلك أعضاؤه فى تحول مستمر من التحلل والاعتداء • أما النفس وهى مايشير اليه الإنسان بقوله "أنا" - فهى ثابتة على حالها دائما ، كذلك فإنها جوهر مجرد من المادة الجسمانية • وهى واحدة بمعنى أنها لا تنقسم ولا تتجزأ مثل سائر البدن • والدليل على ذلك أنها تقبل الإدراكات والعلوم • ولو كانت جسمانية لانقسمت تلك العلوم بانقساماتها ، فلا يوجد علم مفرد قط ، وهذا محال • ومن الجدير بالذكر أن ابن النفيس يرفض القول بوجود النفس الكلية ويرى أن البدن هو شرط وجود النفس الخاصة به • وأبسط عنصر فى البدن هو ما يطلق عليه "عجب الذنب" الذى تتعلّق به النفس ، ثم تأخذ فى الاعتداء وتخليق الأعضاء حتى يتكون البدن بأعضائه المعروفة • وقد اقنضت حكمة الخالق عدم فناء هذا الجزء البدنى ، حتى بعد وفاة الإنسان وتحلل سائر أجزائه (١) •

٣٣- وإذا كان الموت يستتبع فناء البدن ، ماعدا عجب الذنب الذى ترتبط به النفس، فإنها تظل مدركة وعالمة ، وهذا يفسر ما يحدث لها من نعيم وألم فى القبر • فإذا جاء الوقت الذى يكون فيه المعاد ، نهضت النفس وغذت هذه المادة (عجب الذنب) بجذب المواد إليها وإحالتها إلى مشابقتها ، فيحدث البدن مرة أخرى ، ويكون هو ذلك البدن الأول (بمعنى وحدة هذه المادة فيه مع وحدة هذه النفس) وبذلك يكون المعاد • وتكون النفس بعد ذلك غير تاركة للاعتداء ألبتة ، فلذلك لا يعدم البدن ألبتة، فإذا كان فى نعيم

(١) السابق ، ص ١٣٧ •

فالأمر ظاهر ، وإذا كان فى النار ، أحرقت الأجزاء الحادثة فى البدن وعندئذ تعود النفس فتولد أجزاء أخرى ، حتى يظهر بدن آخر . . وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم من تبديل الجلود ، طالما دام البقاء فى النار (١) .

٣٤- ومن هذا نرى أن الاستعانة ببعض المعلومات الطبية فى هذا النص لا يبدو أنها تتعارض مع ماتذهب إليه النصوص الدينية ، بل إن الإطار العقلى الذى يحتويهما معاً يكمل طابع التناسق فى الفكر الفلسفى لدى ابن النفيس . ومن هذا المزيج المتميز ، تبدو لنا محاولة هذا الفيلسوف المسلم فى تقريب المفاهيم الدينية العميقة إلى الإنسان البسيط ، وتغليظها فى نفس الوقت بغلالة عقلية لاتوغل فى الغموض أو الإبهام ، كما أنها تتجنب تفنيد أخطاء الآخرين ، والدخول معهم فى مجادلات تجريدية عقيمة .

٣٥- وفى مجال استخلاص فلسفة الأركان الخمسة الأساسية فى الاسلام (الشهادة ، الصلاة ، الصوم ، الزكاة ، الحج) ، يرى ابن النفيس أن الإسلام - باعتباره آخر الأديان المنزلة - يحتاج إلى حفظ أكثر من سائر الأديان السابقة ، لأنه لا رسالة بعده . لذلك شرعت أركانه الأساسية مشتملة على تذكير أتباعه - على نحو مستمر - بتعاليم هذا الدين الخاتم . ويأتى (الذكر) فى المقدمة . وهو إما أن يكون مقصوداً لغيره ، كما يحدث فى الصوم والزكاة . . أو يكون مقصوداً لذاته كما هو الحال فى الشهادة ، التى هى عبارة عن "قول مفرد" يظل الاعتقاد به مستمرا ، ثم تتوالى بقية الأركان على النحو التالى :

(١) السابق ، ص ١٣٨ .

الصلاة : فعل بدنى محض

الصوم : ترك بدنى محض

الزكاة : فعل مالى محض

الحج : فعل بدنى ومالى (١) •

ومن الواضح أن هذه الأفعال كلها تتضمن تذكير المسلم بحقائق دينه ،
ويؤكد وقوعها وتواليها فى اليوم ، والسنة ، والعمر كله حقيقة الطاعة لله
تعالى ، وإخلاص العبادة له وحده •

٣٦- ومن أهم الأسس التى قامت عليها الشريعة الإسلامية فى مجال
الاجتماع البشرى : تحقيق العدل ، وعدم الجور والغرر (الخداع والغش)
والنهي عن الظلم ، وأخذ المال بغير الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، وكذلك النهى عن "كل أمر يؤدي إلى الاستغناء عن نفع الناس ،
وإلى القناعة بالبطالة" (٢) • ويبدو من العبارة الأخيرة موقف ابن النفيس من
الزهد فى الدنيا ، والانعزال عن حركة المجتمع ، والتفوق بعيداً عن نفع
الناس • ومن الواضح أن هذه هى سمات التصوف ، وخاصة فى مرحلته
الآخيرة (٣) •

٣٧- كما يتعرض ابن النفيس لبعض النقاط التى مازال يثور حولها
جدل مع أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى ، من مثل : زيادة ميراث
المرأة عن الرجل ، بسبب مسئوليته الأساسية فى الإنفاق عليها ، وضرورة

(١) السابق ، ص ١٤١

(٢) السابق ، ص ١٤٢

(٣) انظر كتابنا : تمهيد لدراسة التصوف الإسلامى • الفصل الثانى •

إشهار الزواج ، حتى لا يحدث إنكار للأنساب ، والسبب فى عدم تعدد الأزواج مع إباحة تعدد الزوجات ، حتى لا يفسد نسب الأبناء ، وفتح باب الفرقة بين الزوجين عند تعذر المعيشة بينهما ، مع إعطاء الرجل هذا الحق ، دون أن تمنع منه المرأة تماماً ، حتى تكون المعاشرة الزوجية بالحسنى ، والمفارقة بالإحسان (١) ٠٠ وعلى هذا المنوال ، يستمر ابن النفيس فى تقديم "حجة عقلية" تساند النص الشرعى وتؤيده ، مؤكداً ما يميز به الإسلام من أنه دين الفطرة الذى يخاطب العقل ، ولا يتناقض مع براهينه .

٣٨- ومن أهم الأفكار التى يؤكد بها ابن النفيس فكرة أهمية وجود حاكم ، يطبق الشرع على الناس لأن منهم "من تشتد محبته للظلم ، فلا يردعه عنه علمه بنهى الشرع عنه فقط ، بل إنما ينتهى عن ذلك بقاهر يقهره عليه . وذلك القاهر إنما يتمكن من ذلك إذا كان مطاع الأمر عند الناس ، وذلك هو الملك . ويجب أن يكون لكل مدينة ملك ، أو قائم مقامه وهو نائب الملك . ولا يترك الملوك وطباعهم ، فقد يكثر منهم الجور ، فلذلك يجعل أمرهم إلى واحد يحكم عليهم ، وذلك هو الخليفة . وهكذا يمكن - فى إطار هذا النظام - أن يعاقب المنتهكون لحقوق الله والناس بالعقوبات التى تتناسب وخطورة الجرم : كالقصاص للقتل العمد ، والدية للقتل الخطأ ، وقطع اليد للسرقة . . وفى المقابل من ذلك ، ينبغى أن يقوم الحاكم بتخصيص أموال الزكاة والجزية لما ينفع الناس ، مثل رواتب الجند والحافظين للبلاد ، وكذلك الأئمة والمؤذنين ونحوهم ، وكذلك الفقراء والمساكين ونحو ذلك (٢) .

(١) الرسالة الكاملة ، ١٤٥ .

(٢) السابق ، ١٤٦ ، ١٤٧ .

٣٩- وقد خصص ابن النفيس الفن الرابع من رسالته لكيفية وصول بطل حكايته (كامل) إلى معرفة الحوادث التي تكون بعد وفاة الرسول ﷺ . والواقع أن الفصول العشرة التي تضمنها هذا الفن قد أتاحت له فرصة أكبر لتأمل أحداث تاريخية وقعت بالفعل ، بل وتقديم "تنبؤات"، ورؤى" مستقبلية لما يمكن أن يحدث فيما بعد . ولاشك أن ابن النفيس قد تجاوز في هذا الجزء كل من سبقه من الفلاسفة المسلمين الذين عكفوا -غالبا- على تفسير الماضي ، أو - في حدود ضيقة جدا - على تحليل الواقع .

٤٠- يرى ابن النفيس أن الخلافة الراشدة التي جاءت بعد وفاة الرسول ﷺ ، كانت ضرورية ، للحفاظ على الدين الذي جاء به ، وبلغه في مدة قصيرة (٢٣ سنة) لم يتمكن فيها بالطبع من إيصال الشريعة إلى جميع الناس . ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية أن يتعاقب بعده خلفاء ، لهم مكانتهم عند الناس ، بفضل صحابتهم له ، وقربهم منه ، حتى ينهضوا بتبليغ الدعوة إلى أكبر عدد ممكن . وإذا كان "في طبع الناس حب الرياسة" فلا بد أن يقع بين الصحابه السابقين بالإيمان من التنازع والمخالفة ، إلى أن يقع بينهم مقاتلة على الخلافة . وذلك لا يمكن أن يقع عقيب وفاته ﷺ ، وإلا كان ذلك مؤديا إلى استيلاء الكفار على أتباعه والقضاء عليهم ، وبالتالي انتقاض شريعته ، مع أنه خاتم النبيين . لذلك وقعت هذه المقاتلة بعد وفاة النبي ﷺ بمدة ، كثر فيها أتباعه ، والمؤمنون به (١) .

٤١- وإذا كان المسلمون في زمان النبوة يتلقون العلم عن طريق الوحي ، القاطع لأي خلاف ، فقد أصبحوا بعد انقضاء عصر النبوة يتلقون

(١) السابق ، ١٥٠ - ١٥٢ .

العلم بالفكر والرأى • ولما كانت طباع الناس كثيرة الاختلاف ، كثرت
الأراء ، وتعددت الأقوال والمذاهب ، وحرص كل واحد على نصرة رأيه ،
ودعوة الناس إليه ، لأجل محبة الرياسة • • فلذلك انقسمت ملة الرسول ﷺ
إلى طوائف ، مختلفة الأراء فى أصول الدين وفروعه . وظهرت الأئمة ،
الذين تعصب لكل منهم خلق كثير ، وبدأ تأليف الكتب لنصرة المذاهب
وتبعها إنشاء المدارس لتلقينها ، والانتصار لرأى دون غيره (١) •

٤٢- وإلى جانب التنازع على الرئاسة ، يتوقع ابن النفيس لأمة محمد
وقوعهم فى بعض المعاصى ، التى قد تستوجب عقاباً جزئياً ، وليس عقاباً
شاملاً يستأصلهم تماماً من الأرض ، كما حدث لكثير من الأمم السابقة • لكن
الخطر الحقيقى على المسلمين هو الذى سوف يأتى إليهم من الخارج ، أى
من الكفار ، الذين يمكن اعتبار انتصاراتهم على المسلمين أحياناً نوعاً من
العقوبة المقدره عليهم فى الدنيا نتيجة مخالفتهم لتعاليم الشريعة . وفى
محاولة طريفة للغاية، يحاول ابن النفيس تحديد مصدر الهجوم من هؤلاء
الكفار على المسلمين بأنه من جهة الشمال • ولما كان هؤلاء لامله لهم ،
فإنهم لن يقوموا بتحويل المسلمين عن دينهم، بل على العكس، سوف يدينون
هم بهذا الدين، ويصبحون قوة داعمة له (٢) •

٤٣- وهكذا يربط ابن النفيس بين معاصى الأمة الإسلامية وبين
ما يتعرض له من ويلات الحروب كنوع من التطهير ، الذى تكفر من خلاله

(١) السابق ، ١٥٣ - ١٥٤ •

(٢) السابق ، ١٥٨ - ١٥٩ •

عن ذنوبها ، وتعود من جديد إلى التمسك بالمنهج الإلهي • لكن هل تنتهى المعاصى أو تختفى المخالفات ؟ الواقع أنها تستمر متفرقة حتى إذا كثرت كثرة بالغة وتجمعت وقع الهجوم من الخارج ، وحدث القتل فى صفوف المسلمين ، مما يعد استشهاده يثابون عليه (١) •

٤٤- أما الفكرة الجديدة بالاعتبار ، والتي يطرحها ابن النفيس فى ختام رسالته ، فهى الخاصة بالارتباط بين بعض الظواهر الفلكية ومزاج البشر ، الذى يأخذ فى البعد "عن الاعتدال جدا ، فلذلك تسوء أخلاقهم ، وتكثر الشرور والفتن" وهو يقرر أن سوء المزاج يلزمه فساد الذهن ، وهى حالة تنافى قبول العلوم والحكمة ، بل إن العلوم تأخذ فى الانقراض، وتقل جداً فى الناس (٢) ويتزامن ذلك مع كثرة الزلازل والخسوف ، ويصل الحال إلى تغيير صور الناس ، وحدث القيامة(٣) •

٤٥- من خلال هذه القراءة المتأنية لرسالة ابن النفيس ، يتبين لنا طرافة المحاولة الفلسفية التى قام بها فى الفكر الإسلامى ، عن طريق عرض الشريعة عرضاً مشوقاً للإنسان البسيط ، ومتسماً - فى نفس الوقت - بالطابع العقلى ، الذى يمكن أن يرد على الافتراءات المثارة ضد الإسلام • كما يبدو التأكيد على عدم وجود أى تعارض بين الشريعة والحكمة ، أو بين الدين والفلسفة ، مع بيان أن ما جاءت به الشريعة يتفق تماماً مع ما يصل

(١) السابق ، ص ١٥٧ •

(٢) السابق ، ص ١٧٠ •

(٣) السابق ، ١٧٠ ، ١٧١ •

إليه العقل الصحيح . وأخيراً يظهر من خلال بث بعض المعلومات الطبية والفلكية - المتاحة في عصره - حرص ابن النفيس على عملية التنقيف العام ، وعدم الضن بالعلم والحكمة على الجمهور .

٤٦- كيف نقيم محاولة ابن النفيس في اطار الفلسفة الإسلامية ؟
لايمكن إغفال ماسبقه من جهود الفلاسفة الذين وضعوا أفكارهم في "قصص أو حكايات" من أمثال ابن سينا وابن طفيل والسهورردى ، لكننا ينبغي ألا نضعها في سلك واحد لمجرد التشابه في الشكل الخارجى ، فقد تبين لنا أن الأفكار التى طرحها ابن النفيس ليست هى نفس الأفكار التى عرضها كل من هؤلاء الفلاسفة . بل لعلنا نجد مشابهة أكبر بينه وبين فيلسوف إسلامى آخر هو ابن رشد . . صاحب أهم محاولة في التوفيق بين الشريعة والفلسفة .
كذلك فإنهما يتفقان في رفض التصوف الزاهد المنعزل عن حركة المجتمع ونفع الآخرين . كما أن ابن النفيس ، من ناحية أخرى ، يقترب من فكر ابن خلدون (٨٠٨هـ) الذى قام بمحاولته الفريدة في استخلاص قوانين عامه من أحداث التاريخ ، لكننا هنا أمام إضفاء طابع عقلى منتظم على أحداث التاريخ ذاتها ، ثم الانطلاق من ذلك إلى تقديم بعض الرؤى المستقبلية لواقع الأمة الإسلامية . .

٤٧- إن التصور العقلى للدين الإسلامى فى أسسه وتفصيلاته هو الغالب على فكر ابن النفيس . ولاشك أن التوصل لمثل هذا التصور لا يأتى من فراغ ، وإنما لابد أن تسبقه معرفة عميقة ، قائمة على الدراسة والتحصيل . وأروع مايتجلى في محاولة ابن النفيس هو الابتعاد عن الاشتباك مع المخالفين في رأى ، وعدم إضاعة الوقت والجهد في الرد

المباشر عليهم • صحيح أنه يدحض كثيراً من الافتراءات حول الإسلام ولكنه لا يذكر أحداً باسمه ، ولا يشير إلى مذهب مخالف بعينه • وتلك بدون شك خطوة إيجابية كان يمكن للفلسفة الإسلامية أن تتقدم بها إلى الأمام •

٤٨- وقد يتندر علماء اليوم من قيمة المعلومات الطبية أو الفلكية التي استخدمها ابن النفيس ، ولكننا ينبغي أن نقدر أنها كانت هي أعلى ماتوصل إليه العلم في عصره ، وأيضاً هي ما أطمأن إليها عقله • ومن المؤكد أن استخدام حقائق العلم (المؤقتة والنسبية) في الدفاع عن العقائد الدينية - يظل مغامرة محفوفة بالخطر ، ولا تتبين سذاجتها غالباً إلا في العصور اللاحقة •

